المغزل . والريف . ونفسى

[إلى الشاعر التائه صاحب « أرواح شاردة » الصديق على محمود طه]

للأستاذ راشد رستم

شردتُ من الحضر إلى الريف — وليس العجب أن يشرد المرء من الحضر إلى الريف — وإلا فأين معنى الشرود، وأين موطن الشرود، بل وأين الروح الشَّرود ...

أما أنت يا صاحبي، فقد شردت من الريف إلى الحضر! ذلك إذا عددنا مصر، بنيلها العظيم، وزرعها النضير، وإنسانها الكريم، ريفاً وأي ريف، ثم حسبنا بلاد الغرب بمياهها المدنية، ومدنها الفنية، ورهطها النشيط، حضراً وأي حضر ...

فهل أنا موفق هنا معك، أم أني شرود كذلك في هذا الخيال وهذا التشبيه؟ على أنه إذا كانت الأولى فأنى منتصر، وإن كانت الثانية فلست أنت المنتصر ...

* * *

ولكن خبرني، ما بالي أثير عليك غبار هذا الجدل وأنا في سكون البكور من صباح منير، وسط ريف هادئ بديع! لماذا هذا الجدل وأنا في جو نقي نظيف، حيث البساطة والسهولة والوضوح! في هذا الصباح البدري الذي لا تصيح فيه الديكة إلا لكي تدعو النيام إلى القيام، والذي تحمل فيه الطيور النطاطة تحيات النهار — وهذا أول النور وآخر الظلام!

هذا صباح الريف، سكون ولكن حياة. وها هي الطبيعة، ناعسة تتمطى ولا تقوم. وأنا صاحٍ قائم أذكر قول الشريف الرضي، رضيّ النفس، شارد الروح، وهو يقول:

وأكتم الصبح عنها وهي غافلة ... حتى تكلم عصفور على علم

* * *

وهأنذا أتحدث عن هذا الصباح الغريب، فقد كان صباحاً ساكناً، ثم ثار، ثم سكن. أثبت الحقيقة كما جاءت فيه — والحقيقة أصل لكل خيال — فقد جلست الساعة بعد هذا الشروق البهي، و« مغزلى » في يدي، وأنا في هذا المكان من الصعيد السعيد البعيد ...

وهذه هي الأرض تغمرها مياه النهر الكريم، تحفها سلسلة هذه الجبال الراسيات، يضم القوم بينهما هذا الوادي الأخضر السهل الفسيح الممتد

* * *

وإذ أنا في هذه الحال، هادئ النفس هادئ البال، إذا بالبلدة الناعسة، وهي تطرح عنها أطراف الليل، تستيقظ على صوت مزمار وطبل — جماعة يحجون إلى دير بالجبل بعيد — حتى إذا عادوا من نذرهم وقد مرُّوا علينا بالطريق، صبحونا مبدرين مبكرين، ودخلوا القرية وافدين؛ حيَّونا بأصوات البشير، وتلقيناهم بأحسن تكريم، وتبادلنا وإياهم في ساعة هذا النهار المنتش الصبوح، صفاء قلوب في صفاء قلوب

* * *

ثم أداروا علينا من أنغامهم موسيقى ذات دوىّ بعيد وحنو قريب، فأخذت القوم نشوة اليقظة بعد فترة الرقاد الطويل، وتولتهم هزة الفرح، فراحوا وزامر الحي يزمرون ويطبلون، كما أنشأوا (يتحاطبون)، يعملون عصيهم في الفضاء، تدور بهم وهم بها دائرون، يتمددون ثم يلتفون، وفي خفة يقفزون، ليس فيهم طالب ولا مطلوب، ولا غالب ولا مغلوب، إذ هم في لهو يمرحون، وأهل القرية من حولهم معجبون مبتهجون

* * *

حتى إذا تحول الطرب ودارت للرقص أنغامه، دارت في الساحة من الرجال أربابه، يتفكهون وإن كانوا به يتباهون؟ غير أن الخلخال رنانة، والخال المحبب ساحلة، وقد دق

لا تتعدى أضرارها إلى هدم أصول الحياة وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الإنسانية ذات الحرمات والقيم التي لها اعتبارها، كما هي الحال الآن في نتائج هذه الحرب... فلن يصح الآن هذا التعليل بعد أن صار قتال الإنسان كقتال الآلهة لا كخصام الأطفال

وقتال الآلهة — لو كان هناك آلهة إلا الله — تخريب لأصول الحياة وسحق لبراعمها ومناطق نموها. وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل إليها والإطباق عليها لأنهم فرضاً خالقوها وواضعو أسرارها ...

فلنوحد الإنسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة في التخريب، كما وحدنا الأرباب!

ولنعلُ بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب، من كل ذات ظفر وناب!

عبد المنعم محمد طهوف

الطبل لبنات الحى دقاته ، فنزلن الساحة يخطرن والقلب وقتها دقاته ، وأثارت بنات الحى فى الحى الرقص موجاته ، فارتفعت فى ميزان (الحرارة) شاراته ، وازدحم الميدان واشتدت حماساته ؛ فقد دارت بنات الحى فى الميدان للرقص دوراته ، وحمى الوطيس واشرأبت من الجمع هاماته ؛ هؤلاء هن للدلال والوقف والعطف سيّداته ، وهؤلاء هن للف والليل والدوران ربّاته :

سان الإله رشيقةٌ مياسةٌ أربت على الغزلان فى الجولان

* * *

ثم خلت الساحة من حسان راقصاته ، إلا التى هى من بنات الحى أيين باناته . هيفاء هيفاء ، تخطر فوق الثرى وكأنها تصعد فى الجو إلى ثرياته ، خفةً ورشاقة وسناء ؛ بينما تراها هنا إذ تراها هناك . وهى إن حنّت على المشيب أقبلت عليه ترعاه ، فتجعله من فرط الرضا شباباً ... فإذا تجنّت على الشباب تحولت إليه تسبيه هياماً تجعله هباء أو سراباً ...

وكأنى بهـا حمامة الصبح وهذا هو الصبح قد لاح ، فهل تبعد يا أليف الهوى وهـذا هو الإلف قد بان وسبحان الفتاح ؟ تعال . تعال . خذ الخصر بيمناك ، ودر بالساق مع الساق ، ولا تقل أين المساق . إن للحياة مداها ، وللروح فى حب الرضا قرباها ، ومناها ، ونجواها ...

* * *

وانظر الآن ! هذه هى الخيل تجرى فى أعنتها وفق هواها ، تدب دبيب الصمد والخيلاء والخير معقود على نواصيها . وهؤلاء فرسانها لا يستطيعون لها كبحاً ، فتفزع تدخل بهم الساحة مسرعة ، كأنها تأبى إلا أن تأخذ نصيبها فى موكب هذا الصباح ، ولكنها ترتد سريعة جامحة ، كأنها من نيران أمامها خائفة ، وما هى إلا ذات الخلخال ، لا تزال فى الساحة قائمة ، لم تترك مكانها ، فكيف إذن للخيالة أن تستبيح الميدان ؟

لـا أن رأتهم مندفعين ، وقفت وقفتها تكشف فيها لهم عن القسى والسهام ، فأدركوا ما قد يصيبهم من كبوات وغرام ، وخافوا على أنفسهم وخيلهم من الأذى والضرام ، وهكذا ارتدوا خائفين وهم هم السادة الشجعان ، من الخيالة والخيل والفرسان .

حتى إذا هدأ الروع ، واستقر الفؤاد ، عادوا بعدئذ إلى الساحة مطمئنين ، بل كراماً نازلين ، يدورون ويدورون ، يلعبون « ويفرّسون »

والخيل تزع منزعاً فى أعنتها
كالطير ينجو من الشؤبوب ذى البرد
وللخيل صيحات وللفرسان صيحات

وهكذا بين جمال وجلال وكر وفر ، وصهيل وتهليل ، تسود البطولة أجواءنا ، وتملك النعومة أرواحنا ...

* * *

حتى إذا بلغت نشوة الفرح حدها ، وضيافة الصبح سمتها ، وأذن مؤذن الركب بالرحيل ، وأخذ القوم يعودون فى هدوء آسفين ، ونحن من ورائهم كذلك آسفون ؛ وخلا المكان ، وانفض السكان ، وإذا بى قد شردت من حالى دون أن أبرح مكانى ، وإذا بى يشتد شانى دون أن أترك شانى ، وإذا بى أرى مغزلى بجوارى فألجأ إليه لأجد عنده خلاصى

* * *

وإنى وقد آخذ مقامى من هذا الريف النظيف ، أبدأ كل يوم فيه بمـا قد هويته صغيراً ، ولا أزال أهواه كبيراً : « غزل » الصوف بهذا المغزل القديم المعروف ؛ إذ أجد للفكر إذا ما شرد ، وللنفس إذا ثارت ، راحة وسكوناً مع دورات هذا المغزل الأنيق الرشيق العتيق

وإنك لتراه يتدلى فى الفضاء دائراً دائراً ، معلقاً فى خيط رفيع دائماً ؛ ينساب من بين أنامل ماهرة ، قد تكون كذلك ناعمة ، تجعله خيطاً رفيعاً ناعماً ، تتجلى فيه دقة الصنعة إذا ما جعلته رفيعاً رقيقاً ، متيناً متيناً

تراه محمّلاً مثقلاً ، معلقاً فى ذلك الخيط المتين الرفيع ، كما يتعلق الهائمون الشاردون بالأمل فى خيط منه وحيد رفيع

يدور المغزل فى الفضاء مثقلاً مثقلاً ، كأنه النفس المثقلة بأنواع الهموم ، تغزلها يد الأقدار ، تلفها عليها فى سكون ودوام ، ثم تدور بها فى طيات هذه الحياة

هذا المغزل الذى بين يدىّ ، هو كهذه النفس التى بين جنبيّ ، حملتها كبيرة صغيراً ، ولا أزال أحملها كبيرة كبيراً

هذا المغزل بينما تراه خليًّا حيناً ، مثقلاً أحياناً ، يدور فى فضاء الله ، كما تدور فيه هذه النفس ثائراً ، هادئاً صابراً

هذا المغزل مهما كان عتيقاً عريقاً ، فإنه متجدد دائماً ، نظيف دائماً ، رشيق دائماً ...

(مزروعة كوم النصورة) راشد رستم